المقدمة

الحمد لله رب العالمين ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

والحمد لله القديم . فلا أول لوجوده . الدائم الكريم . لا آخر لبقائه ولا نهاية لجوده. الملك حقاً فلا تدرك العقول حقيقة كنهه، القادر فكل ما في العالم من أثر قدرته، المقدس فلا تقرب الحوادث حماه، المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواه . مصرف الخلائق بين رفع وخفض، وبسط وقبض وإبرام ونقض، وإماتة وإحياء وإيجاد وإفناء، وإسعاد وإضلال، وإعزاز وإذلال، يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله إلى الناس كافة الذي قص الله تعالى عليه من أنباء الأمم السالفة مالم يكن يعلمه هو ولا قومه . وجعل ذلك موعظة للناس يتدبرها ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ * أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفوته من خلقه. ومجتباه بين العالمين . سيد العرب والعجم المبعوث إلى جميع الأمم .ﷺ وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى ومصابيح الظلام .

أما بعد . فإني أريد أن أضع هذا الكتاب بين يدي القارئ المسلم والعربي خصوصا بعدما شغلت فكري وخيالي سجية الجود والكرم عند الله سبحانه وتعالى الذي يرزق مخلوقاته كافة، ومنهم عباده على مختلف أجناسهم ودياناتهم المتعبد والموحد له

والعاصي والكافر له يرزقهم الله جميعا وما جاء به الرسول الكريم ﷺ وأصحابه المهتدون بهديه والتابعون لهم . والأجواد الكرماء من أعيان الدنيا حكّاماً وقادة، والعلماء والبارزون من عموم الناس . لقد شغلني الجود والكرم حيث لم أجد كتابا خاصاً بهذا الجانب رغم كثرة المؤلفين والباحثين العرب والمسلمين في كل نواحي الحياة وإن ما وجدته في كتبهم موضوعاً يشار إليه من بعيد أو قريب ولكن ليس موضوعاً خاصاً بحد ذاته بل وجدته موضوعاً متناثراً ضائعاً بين طيات كتب المؤلفين . ومنذ سنوات وأنا أفكر في كيفية إخراج كتاب أو مؤلف خاص يعالج هذا الجانب الأخلاقي المهم في حياة البشر وخاصة المسلمين أرجو به رضا الله سبحانه وتعالى .

فحينئذ ألقيت جلباب المهل، وأزحت رداء الكسل وألِقْتُ[1] الدواة، وأصلحت القلم . وقلت هذا أوان الشد فأشتدني زيم [2]. وجعلت الفراع[3] أهم مطلب وإذا أراد الله أمراً هيأ له السبب، وشرعت في تحقيق ما أصبو إليه ومن الله التوفيق .

ومن العجيب أن السكيت[4] يروم أن يجيء سابقا . ونصبت نفسي غرضا للسهام . وجعلتها مظنة لأقوال اللوام . لأن المآخذ إذا كانت تتطرق إلى التصنيف المهذب والاستدراكات كانت تتعلق بالمجموع المرتب . الذي تكررت مطالعته وتنقيحه . وأجيد تأليفه وتصحيحه فهي بغيره أولى وبه أحرى . على أني مقر بالتقصير فلا أقول إن الغلط سهو جرى به القلم . بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم .

لقد فكرت وتأملت كثيراً فيما فضل الله تعالى هذه الأمة على غيرها من الأمم بقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠]. فبماذا كان هذا التفضيل ؟

---

(١) ألقت الدواة : جعلت لها ليقة وهي شيء من حرير ونحوه يجعل فيها الدواة ويصب عليها الحبر .

(٢) الزيم : اسم ناقة أو فرس يأمرها بالعدو .

(٣) جعلت الفراع : يعني إتمام العمل .

(٤) السكيت : من أسماء خيل السباق وهو الذي يجيء آخر الخيل .

١ـ هل في البناء ؟ كانت كثير من الأمم قد سبقتها في البناء والتشييد.

٢ـ هل في إدارة الأوطان ؟ كانت كثير من الأمم قد وصلت إلى درجة من الرقي العمراني والثقافي وتكوين الإمبراطوريات .

٣ـ هل في الحروب والشجاعة والإقدام ؟ أيضاً كانت هناك أمم كثيرة تتصف بهذه الصفات .

أرى أن الله تعالى يخبر عن هذه الأمة المحمدية بأنها خير الناس للناس أي بمعنى خير الأمم وأنفع الناس للناس وقال ﷺ «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»[1] وكذلك هذه الأمة الإسلامية التي فضلها سبحانه فأنزل أساس دينها بلغتها وبالإيثار والجود والسخاء كما قال تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]. هذه كانت هي الصفات المميزة للأمة العربية المسلمة عن باقي الأمم . فمن الحق علينا أن نهتم بإحياء التراث الأخلاقي الحضاري للكثير من أجدادنا وإبرازه بالشكل الذي يجعل منه ثروة يستفيد منها الأجيال للإبقاء على هذه السجايا وتعميقها في نفوس شباب هذه الأمة الحية .

ولقد رأيت أن يكون كرم هذه النخبة من المشاهير ذا فائدة دنيوية وأخروية، وأرجو من اللبيب العاقل أن ينظر إلى هذه القصص والروايات نظرة ذات رؤية جوهرية عميقة فلسفية لحقيقة ما روي، ويعتبرها عبرا من الزمان، وأن لا يجعل نهاية معرفتها الأحاديث والأسمار لأن هذه حال من اقتصر على القشر دون اللب .

أما الفوائد الدنيوية فكثيرة منها :

١ـ ما لا يخفى على أحد أن الإنسان يحب البقاء ويؤثر أن يكون في مجموعة الأحياء فالإنسان الحي يصل ماضيه بحاضره، فما رآه أمس أو سمعه أو قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين، إذا طالعها فكأنه عاصرهم وإذا عرفها فكأنه حاضرهم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٤٣٤) من حديث درة بنت أبي لهب.

٢ـ ومنها أن الأغنياء وأصحاب الجاه المعاصرين إذا وقفوا على ما في سيرة المتقدمين وأخبارهم وعلموا سيرة الكرماء المؤثرين على أنفسهم من أمثال الرسول الكريم محمد ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم والحكام والأمراء والقادة والوجهاء، تأسوا بهم وفعلوا أفعالهم وبذلوا أموالهم في مساعدة المعوزين فاستحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه وإذا عرفوا سيرة الولاة الجائرين وأصحاب الأموال البخلاء الجامعين للأموال بغير وجه حق والذين يكتنزونها دون مساعدة الآخرين وما رافقهم من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة أعرضوا عنها وطرحوها جانباً .

٣ـ ومهما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلا ويصبح لأن يقتدي به أهلا. ولقد أحسن القائل حيث يقول :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع

فلا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع .

يعني في هذا القول بالمطبوع هو العقل الغريزي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، وبالمسموع ما يزداد به العقل الغريزي من التجربة، وجعله عقلا ثانيا توسعا وتعظيما له وإلا فهو زيادة في عقله الأول .

ومهما يتجمل الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ونقل طريفة من طرائفها، فترى الأسماع صاغية إليه، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره .

أما الفوائد الأخروية :

١ـ فمنها : إن العاقل اللبيب إذا تفكر بالدنيا ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها وأنها سلبتهم نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم فلم تبق على جليل ولا حقير ولم يسلم من نكدها غنيٌ ولا فقير، زهد فيها وأعرض عنها،

وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائلا يقول : ما نرى ناظراً فيها زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا، فيا ليت شعري ! كم رأى هذا القائل قارئا للقرآن وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام يطلب به اليسير من هذا الحطام ؟ فإن القلوب مولعة بحب العاجل .

٢ـ ومنها التخلق بالصبر والتأسي بالجود والكرم وهما من محاسن الأخلاق فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم، ولا ملك معظم، بل ولا واحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما أنابهم .

ولهذا وردت القصص في القرآن المجيد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] . فإن ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرهِ الحكايات الأسمار فقد تمسك من أقوال الزيغ بمحكم سببها، حيث قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلباً وعقلاً ولسانا صادقا ويدا كريمة سخية، ويوفقنا للسداد في القول والعمل، هو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد رتبت أسماء الأجواد الكرماء حسب تاريخ حياتهم فقسمت على فصول عدّة كل فصل يحتوي الأجواد الكرماء، كلٌّ في وقته، حيث قسم الكرم من حقبة العصر الجاهلي، إلى عصر صدر الإسلام، ثم العصر الأموي والعصر العباسي . ما عدا آل المهلب الذين عاش قسم منهم في العصر الأموي وقسم منهم في العصر العباسي فجعلتهم ضمن العصر الأموي، وذلك لجعل آل المهلب كلهم في مبحث واحد لكونهم من عائلة واحدة وكذلك لاتصال أحداثهم ولجعل الموضوع أكثر تواصلاً وترابطاً .